

المسكن التقليدي العثماني في تركيا

(خلال القرنين 17-19م)

د. زكية راجعي

أستاذة محاضرة. معهد الآثار

يعتقد الكثير من العامة و الدارسين أن المنزل في مدينة الجزائر القائم على الفناء الأوسط "وسط الدار" و الذي يرجع إلى الفترة العثمانية يشبه إلى حد كبير البيت العثماني في تركيا و هذا ليس بغريب بما أن الجزائر ظلت تحت الحكم العثماني طيلة ثلاثة قرون، فبدون شك ظهرت التأثيرات العثمانية في عدة مجالات لا يمكن تجاهلها و لكن الابتعاد عن الحقيقة أي لا يوجد تشابه بين المنزل العثماني و المنزل بالجزائر سواء كان ذلك من حيث التصميم أو العناصر المعمارية و حتى الزخرفة، يرجع السبب إلى نقص المراجع التي تبحث في أصل المسكن الذي ظهر في تركيا، لذلك جاءت هذه دراسة للكشف عن الحقيقة حتى لا يحدث خلط بين المسكن في تركيا و الجزائر، و هي ليست بدراسة مقارنة و لكن عبارة عن عرض للمسكن التقليدي في تركيا و توضيح أصله و خصائصه، و قبل ذلك لا بد من إلقاء نظرة وجيزة عن نشأة الدولة العثمانية و الظروف و العوامل التي ساهمت ظهور المنزل العثماني.

ظهور العثمانيون:

الأتراك قبائل رحل، خرجوا من منطقة التركستان¹ نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة، و يشير المؤرخون إل عدة أسباب ساهمت في هجرتهم²، و مع الفتح الإسلامي لبلاد فارس أصبح المسلمون بالقرب من الأتراك فمنهم من إعتنق الإسلام و ذلك منذ القرن الثامن الميلادي و لم ينتهي القرن الحادي عشر ميلادي حتى إعتنق معظم الأتراك الإسلام.

ظل الأتراك يجوبون المناطق في آسيا الصغرى، و من أهم الأحداث انتصارهم على الدولة البيزنطية في موقعة ملازكرت سنة 1071م، و كان هذا سبب في أن أحد الحكام من دولة سلاجقة الروم³ منحهم أراضي على الحدود الفاصلة بين أملاكه و الأراضي البيزنطية و ترك لهم الحرية في التوسع على حساب الدولة البيزنطية، أسقط المغول دولة سلاجقة الروم فاستقل عثمان بن أرطغول بإمارته و أخذ ينظم دولته

¹ التركستان منطقة واسعة في آسيا الوسطى بين سيبيريا و بحر قزوين، من الجمهوريات التي تشمل عليها حاليا: أوزبكستان، كازاخستان، تاجكستان... تمتد إلى إقليم سين كيانغ الصين.

² من أسباب الهجرة غزوة المغول لتلك المنطقة، للمزيد من الإطلاع اراجع: علي محمود الصلابي، أصل الأتراك و مواطنهم، دار النفائس بيروت 1981، ص21 و مايلها.

³ سلالة من التركمان، تفرعت منها عدة فروع حكمت في إيران و آسيا الصغرى و العراق و سوريا، قضى عليها المغول.

و يوسع رقعتها، فاعتبر لذلك المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية سنة 1299م، وانتسبت إليه تمييزا لها عن الدول التركية السابقة عليها: دولة الطولونيين دولة الأخشيديين⁴..

سار خلفاء عثمان على نهجه أي توسيع المملكة و أبرز الأحداث في تاريخ الدولة العثمانية هو الاستيلاء على القسطنطينية سنة 1453م من طرف محمد الثاني، أو كما يلقب محمد الفاتح، و بالتالي القضاء على الدولة البيزنطية، كما استطاع سليم الأول من الاستيلاء على مصر و سوريا سنة 1516م، واتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين. و في أواسط القرن السادس عشر ميلادي، اتسعت الدولة العثمانية فشملت جنوب شرق أوروبا و بلاد المغرب، و في نهاية القرن الثامن عشر بدأ يظهر فيها الضعف إلى أن تقلصت مساحتها و أصبحت ما يعرف بالجمهورية التركية في القرن العشرين⁵.

الإطار الجغرافي و التاريخي للمسكن العثماني:

أكدت الدراسات أن القبائل الرحل تقطن الخيم و هذا نظرا لطبيعة تنقلهم إذ يسهل حملها، و بدون شك الأتراك قبائل رحل فكانوا يقيمون في الخيم و لا يستبعد أنها كانت شبيهة بالخيمة المغولية⁶ و يعتقد أن هذا التأثير ظهر فيما بعد في إقامة الأكشاك داخل الحدائق خاصة في المنازل الفخمة و القصور، و كان معظم السلاطين و الحكام يمضون أوقات الاستراحة داخل هذه الأكشاك هذا ما دلت عليه صور المخطوطات⁷، أما فيما يخص المسكن فمن الصعب تشخيصه و هذا نظرا لانعدام الدلائل المادية سواء آثار قائمة أو نصوص ، و لكن توصل الباحثون إلى استنباط بعض الخصائص التي ميزت المنزل العثماني معتمدين في ذلك على طبيعة المنطقة أي جغرافية المكان، و الأحداث التاريخية، ضف إلى ذلك أدى اتساع البلاد إلى تنوع في المناخ في منطقة الأناضول، كل هذه الظروف فرضت مواد معينة في بناء المنازل، و عليه يمكن تحديد سبعة نماذج للمنزل الأناضولي حسب مواد و تقنيات البناء، و تتمثل في⁸:

النموذج الأول: يتمثل في منازل أقيمت من الحجر في المنطقة الجنوبية الشرقية من الأناضول، و هي تشبه إلى حد كبير منازل بشمال سوريا.

النموذج الثاني: تميز البناء بإزدواجية المواد، أي يقام هيكل البناء من الخشب بينما تبنى الجدران من الحجر و قد استخدمت هذه التقنية في المنطقة الشمالية الشرقية وامتدت إلى ما بعد منطقة أرزروم، و هذه التقنية من تقاليد البناء في الجهة الجنوبية للقوقاز.

⁴ خليل إيناليج، تاريخ الدولة العلية العثمانية من النشوء إلى الإتحاد، ترجمة: محمد الأرنؤوطي، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت 2002، ص9.

⁵ خليل إيناليج، نفس المرجع، ص65 و37.

⁶ Haluk Sezgin, la maison populaire traditionnelle turque et possibilites d'adaptation a la vie moderne, p58

⁷ Godfrey Goodwin, A history of ottoman architecture, thames and hudson Ltd, london 1971, p429.

⁸ Filiz Yenisehirlioglu « l'architecture domestique ottomane : évolution historique et étude de deux exemples situes a Istanbul », dans : l'habitation traditionnelle dans les pays musulmans autour de la mediterranee, t ; annee 1988, p665

النموذج الثالث: تقنية البناء المفرغ (colombage) و تتمثل هذه التقنية في إقامة ألواح الخشبية بطريقة معينة و تترك بينها فراغ يملأ بالطابية و الدبش أو الطين أو الجص و ظهرت هذه التقنية خاصة في شرق البحر الأسود (صورتان 1 و 2).

النموذج الرابع: يكون البناء بمادة الحجر و السقف مسطح، و ظهر هذا الأسلوب على السواحل لمناطق بحر إيجه و البحر الأبيض المتوسط.

النموذج الخامس: طريقة البناء بالحجر بمنطقة الأناضول الوسطى، و خاصة بمدينتي نيغدة و قيصري، و هي متأثرة أيضا بالتقاليد السورية.

النموذج السادس: تقنية البناء بالطابية في المناطق الريفية بالأناضول الوسطى، و هي تأثر ورثه الأتراك عن الحثيين.

النموذج السابع: تقنية البناء المفرغ تبنى الجدران من الآجر أو بتقنية الطابية بينما قاعدة البناء تقام بالحجر، و هذه الطريقة تمتد من سيواس (بلاد الأناضول الوسطى) حتى الغرب أي مناطق بحر مرمر و بحر إيجه و نحو الجنوب أيضا أي مناطق البحر الأبيض المتوسط (صورة 3).

و هذا الأخير أي النموذج السابع يعتبر الأكثر انتشارا في بلاد الأناضول و البلقان كما اشتق منه نماذج أخرى أصبحت فيما بعد تمثل النمط الخاص بالعاصمة إسطنبول، وانتشرت النماذج الأكثر تطورا في الحاضرة فيما بعد في بلاد الأناضول و مختلف المناطق من الدولة ابتداء من القرن السابع عشر⁹.

و مما سبق تم تحديد المسكن العثماني في إطاره الجغرافي، أما فيما يخص الإطار التاريخي أي الزمني فقد رجح الباحثون أن أصل المسكن العثماني يعود إلى المسكن السلجوقي و لكن ما هو متفق عليه أن المنزل تعرض بدون شك إلى التغييرات و التحويرات تتوافق مع العوامل الجغرافية و المناخية¹⁰ كما سبق الذكر، و في ظل غياب النصوص التاريخية و الدلائل المادية لا يمكن إجراء أي دراسة مقارنة بينه و بين المنزل السلجوقي، مع العلم أن النماذج التي هي بصدد الدراسة ترجع إلى القرن السابع عشر أي الفارق الزمني كبير، و لذلك نرى أنه يجب في مثل هذه الدراسة أن نأخذ بعين الاعتبار تأثير الأسرة على الجانب المعماري للمنزل التي تميزت بالمحافظة على حرمة الدار و هذا راجع إلى تقاليد البلاد و استمر بدون شك فترة طويلة أعطى نمط معين للمنزل العثماني و حدد الخطوط الأساسية له¹¹.

أما فيما يخص متى ظهر المسكن التقليدي العثماني، نحن نعلم أن تأسيس الدولة العثمانية كان في بداية القرن الرابع عشر ميلادي، و توسعت عبر أراضي شاسعة، و أقيمت المدن و العمائر واتخذ العثمانيون بورسة و أدرنة حواضر لبلادهم فمن المحتمل أنه ظهر أول نموذج للمسكن العثماني قبل

⁹ Filiz Yenisehirlioglu, op cit, p 66.

¹⁰ Haluk Sezgin, op cit, p61.

¹¹ Filiz Yenisehirlioglu, op cit, p666.

انتقالهم إلى إسطنبول، لكن ما يؤسف له أنه لم يبق أي أثر للمنازل و بدون شك قد خضع إلى تغييرات عبر العصور و هذا راجع إلى التطور الإقتصادي إذ يتطلب نمط جديدة في المعيشة و بالتالي يحدث تغيير في نمط حياة المواطنين فيظهر التجديد و التغيير في بناء المنازل بما يلائم أسلوب معيشتهم، و كما سبق الإشارة إلى ذلك نفتقد الدلائل المادية و النصوص التاريخية خاصة للفترة الممتدة من القرن 14 إلى 17، لذلك نعتقد أنه يجب الرجوع إلى الأرشيف العثماني للكشف عن هذه الحقيقة و يبقى البحث في أصل المسكن العثماني غير واضح¹².

العوامل الاقتصادية و الاجتماعية التي أثرت في ظهور المسكن التقليدي:

إنصبت الدراسات على مجموعة من المنازل التي أقيمت ما بين القرنين السابع عشر و الثامن عشر، و يمثل القرن الثامن عشر الفترة الأكثر تطورا في مجال البناء بحيث عرف حركة نشيطة عمت معظم المدن و لم يكن هذا التطور صدفة بل خضع لعوامل إقتصادية إذ ظهرت طبقة من الأغنياء بين العمال و كان يطلق عليها الأعيان بعدما كانت مقتصرة على رجال الدولة و الجيش، و بدون شك سعى هؤلاء إلى تحسين نمط معيشتهم فأقاموا المساكن داخل و خارج المدينة بما يناسب ذوقهم و مستواهم المعيشي.

ضف إلى ذلك فمنذ بداية القرن 17م إضطر الريفيون إلى ترك أراضيهم نحو المدن و هذا بسبب الإضطرابات التي حدثت في المنطقة و قد أطلق عليها "اضطرابات جيلالي"¹³ و أدى ذلك إلى عدم الإستقرار و ضياع الأمن في الأرياف فحدث تدفق الكثير من الفلاحين نحو المدن و الضواحي و لا يستبعد كما سبق الذكر أن هذه الطبقة الجديدة من الأثرياء و نزوح الريفيون نحو المدن كان لهم دور في تطوير عمارة المسكن العثماني¹⁴.

تنميط المسكن التقليدي العثماني:

يتبين مما سبق أنه يمكن تشخيص المنزل العثماني ابتداء من القرن 17م حتى القرن 19م، و الجدير بالذكر أنه يجب التمييز بين المصطلحين؛ فالمصطلح الأول "أف" (ev) يطلق على المنزل البسيط، أما المصطلح الثاني "كوناك" (konak) يطلق على المنزل الكبيرة (فيلا) أي الخاصة بالأغنياء، كما نجد مصطلح منزل في النصوص المعاصرة للقرنين، و هذا النوع من المنازل أقيمت حوله الدراسات و الأبحاث لتشخيص المسكن التقليدي العثماني ببلاد الأناضول.

ففي تركيا يقصد بالكوناك منزل ذو طابق أو طابقين أقيم بطريقة البناء المفرغ و ملء الفراغ بين الجدران بقطع من الأجر و الجير أو بالتراب المدكوك، و قد تكسى الجدران بطبقة من الملاط أو تترك

¹²Godfrey Goodwin, op cit,p431.

¹³ حدثت هذه الإضطرابات ما بين سنة 1550-1603

¹⁴Godfrey Goodwin, op cit,p432.

بدون تلبيس .يقام الطابق الأرضي من الحجارة و يعتبر كقاعدة للطابق العلوي (صورة3)، و به المدخل و يعتبر المدخل الوحيد و الرئيسي يؤدي إلى الشارع، تبرز واجهة الطوابق على شكل خراجات تطل على الشارع، بينما من جهة الحديقة تقام الغرف حول الصفة sofa . و يغطي المنزل كله بسقف على شكل هيكل (منحدر) يبرز بواسطة ظلات عريضة إذ تعتبر من مميزات المنزل العثماني¹⁵.

و الملاحظ أن الطابق الأرضي يختلف من منزل لآخر و هذا حسب الطبقة الاجتماعية التي تقطنه و غنى مالكة: بحيث نجد فيه مستودع (مخزن) و إسطل و مخزن للقش (التبن) و يمكن أن يحتوي على غرف للخدم. كما يوجد في بعض المنازل الطابق وسطي (entre sol) يقع بين الطابق الأرضي و الطابق العلوي، و عادة ما تخصص غرفه للخدم في المنازل الكبيرة بينما يستخدم كغرف شتوية في البيوت البسيطة¹⁶.

و قد لوحظ خلال هذه الدراسة أن معظم البيوت تنظم حول فراغ مركزي يدعى صفة (sofa) و هذه الوضعية تحدد نمط مخطط المنزل العثماني كما صنفها إدم (Eldem) و على حسب هذه المخططات يمكن التمييز بين أربع أنماط من المنازل التقليدية العثمانية:

1- النمط الأول يقام المنزل على مخطط بدون صفة.

2- النمط الثاني منزل قائم على مخطط ذو صفة خارجية.

3- النمط الثالث منزل قائم على مخطط ذو صفة داخلية.

4- النمط الرابع منزل قائم على مخطط ذو صفة مركزية.

و هذا التتميط الذي وضعه (إدم) يمثل في نفس الوقت مراحل تطور المنزل العثماني و يعتبر النمط الرابع أوج ما وصلت إليه عمارة المنزل العثماني في ذلك الوقت¹⁷.

يتميز **النمط الأول** بإقامة غرفة أو غرفتين متجاورتين أي على محور واحد، تطل مباشر على الحديقة أو ساحة، و النماذج المتطورة لهذه المجموعة يتوسط الغرفتين إيوان (المخطط رقم1).

النمط الثاني أي المنزل ذو الصفة الخارجية، و تقام فيه إما غرفة واحدة أو غرفتين أو ثلاثة غرف على نفس المحور أو منفصلة تشرف كلها على الصفة الخارجية أي أن هذا التخطيط أعطى للمعماري حرية في وضعية الغرف حسب الرغبة و بهذا يمثل المرحلة الأولى لتطور المسكن العثماني (المخطط رقم2).

و هنا يجب أن نتوقف قليلا لإلقاء الضوء على هذا العنصر المعماري الصفة؛ و في الحقيقة هذا الفراغ تختلف تسمياته حسب المناطق و يطلق عليه حياة، سرجاه، سيوان..

¹⁵ Filiz Yenisehirlioglu, op cit,p668

¹⁶ Filiz Yenisehirlioglu op cit,p669.

¹⁷ Eldem S.H, les plans-types des maison turques, Istanbul,1968.p63.

و الصفة في العمارة نوع من الأروقة الذي تفتح عليه غرف المنزل (صورة 4)، كما تعتبر مكان للمرور و الانتقال داخل المنزل، كما يمكن أن يتخذ كمجلس في فصل الصيف . فالصفة لا تشرف على الشارع بل تطل على الحديقة¹⁸ (صورة 5).

يعتبر المنزل ذو الصفة الخارجية من أقدم المنازل و الأكثر انتشارا عبر القرون ببلاد الأناضول و البلقان و الذي استمر حتى القرن 19م.

النمط الثالث أي المنزل القائم على الصفة الداخلية غالبا ما نجده في المدن التي تتميز بقساوة فصل الشتاء، و تقام فيه الغرف على جهتي الصفة المغلقة، التي تمتد حسب محور طولي. و دور الصفة هنا كما رأينا سابقا منطقة مرو و اتصال بين الغرف و في بعض الأحيان تقام عند أطراف الصفة مقاعد ثابتة أي مدمجة في الجدران، للجلوس (المخطط رقم 3) و هذا النمط يستمر حتى القرن 19م.

النمط الرابع أي المنزل ذو الصفة المركزية، و يعتبر تطور للنمط الثالث، و تنظم الغرف في الأركان الأربعة للصفة وللازدياد من مساحة الصفة تقاوم الأواوين عند المحاور الرئيسية لها، بينما يشغل أطرافها مجالس (مقاعد) أو تقام فيها سلالم أو حجرات خاصة بالخدم (المخطط رقم 4). و يعتبر هذا النموذج الأكثر استعمالا و انتشار في المدن خاصة في اسطنبول و بالتحديد في القصور ابتداء من القرن 18م¹⁹.

خصائص الغرفة:

تعتبر الغرفة العنصر الأساسي في البيت إذ هي محل إقامة الأسرة، و الغرفة مربعة الشكل مغلقة على نفسها و لا تتصل فيما بينها و لا يمكن تمييز وظيفتها بالضبط أي نفس الغرفة تستعمل للأكل و النوم والاستقبال و الجلوس...

تتفتح كل الغرف على الصفة يولج إليها عبر عتب، أما الجدران التي تشرف على الشارع تفتح فيها نوافذ مستطيلة، بينما الجدران التي لا يشرف على الشارع أو الحديقة تقام فيه مدفئة في وسطه و تقام الخزانات الجدارية بطريقة سيمترية على جانبي المدخنة، تستعمل الخزائن الجدارية لوضع الفراش (مطرح، و الغطاء)، كما خصصت بعض الدخلات لوضع الشماعد و الأباريق و الكتب.. و غالبا ما تزخرف أبواب الخزانات الجدارية بزخارف محفورة أو ملونة²⁰.

¹⁸Haluk Sezgin, op cit, p75

¹⁹ Filiz Yenisehirlioglu, op cit,p669

²⁰ ibid,p670.

من بين هذه الغرف يمكن تمييز غرفة هامة أو رئيسية و ذلك بمقاساتها و وضعيتها و زخرفتها ، تستعمل لاستقبال الضيوف لكلا الجنسين و هذا في حالة ما إذا كان الحرمك و السلمك غير مفصولين²¹.

في المنازل الأناضولية غالبا ما تجزء الغرفة الرئيسية إلى جزئين؛ الجزء الأول يشبه الردهة يجهز بمدفئة و خزانات جدارية، تقع أرضيته في نفس مستوى أرضية الصفة، بينما سقفه منخفض قليلا عن الجزء الثاني، و هذا الأخير أي الجزء الثاني أرضيته أكثر إرتقاعا من الجزء الأول، و يتميز بإقامة أعمدة رفيعة تفصلهما عن الغرفة الرئيسية، كما تقام مقاعد تحيط بالجزء الثاني تتقدم النوافذ، من ناحية التصميم العام لا تظهر هذه التجزئة و لكن المتمعن في التفاصيل يمكن ملاحظة هذه الإختلافات، تخصص الردهة لوقوف الخدم²²، غالبا ما تزين هذه الغرف في جزئها العلوي بنوافذ زجاجية إذ تشرف على الحديقة، و في بعض الأحيان تجهز الغرف بمكان يخصص للغسل إذ يقام في مكان خفي، أي داخل خزانة جدارية²³.

أما منازل الأثرياء فقد كان يفصل فيها بين السلامك و الحرمك و ذلك بواسطة فناء فتظهر على شكل كتلي بناء كل واحدة مستقلة عن الأخرى.

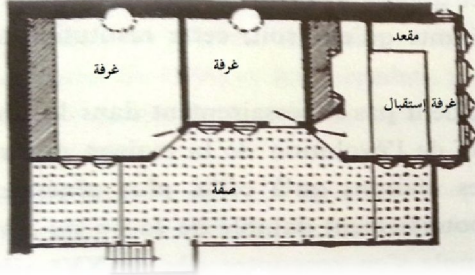
تقام المرافق العامة خاصة الحمام و المطبخ و المخازن في الحديقة و هذا في المنزل الكبير، بينما غالبا ما نجد المراحيض في الطابق الوسطى للمنزل يولج إليه عبر سلم. و الخلاصة يمكن تشخيص المنزل التقليدي العثماني فيما يلي:

- تعتبر الصفة عنصرا أساسيا في تصميم المسكن العثماني استمرت فترة طويلة في العمارة السكنية، و صفة تشكل مكان عبور أو مرور بين الغرف كما يمكن أن تقام فيها الزيارات أي قاعة الاستقبال.
- تقام غرفة رئيسية تتميز عن باقي الغرف بمقاساتها و زخرفتها و وضعيتها بحيث يخصص لها مكان في المنزل.
- بروز الطابق العلوي عن الطابق الأرضي و يكون مفتوح على الخارج بنوافذ بينما الطابق الأرضي - مغلق يتراجع إلى الخلف و يفتح من الداخل على الحديقة.

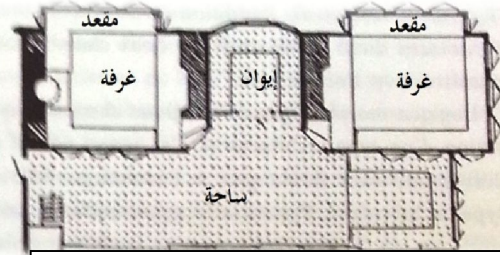
²¹ Haluk Sezgin, op cit, p76.

²² Godfrey goodwing, op cit,p433.

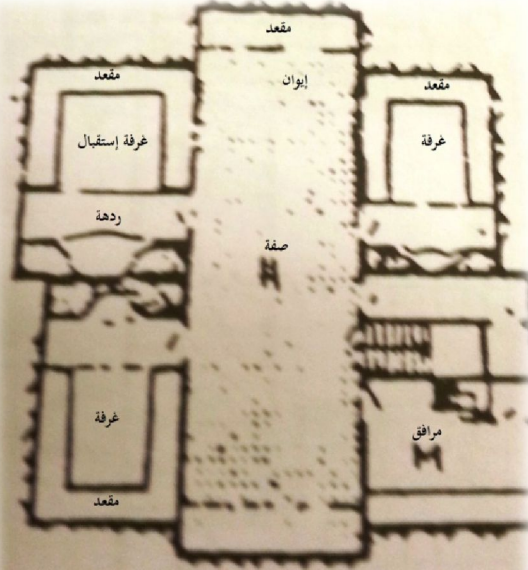
²³ Eldem S.H,op cit,p67.



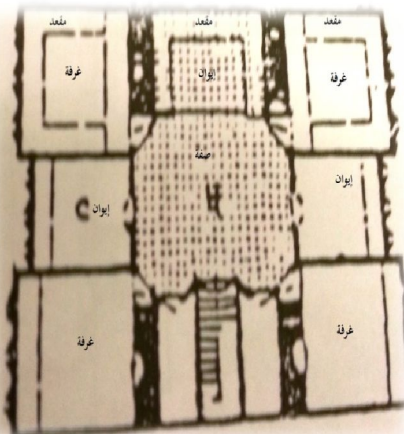
مخطط رقم 2: مخطط ذو صفاة خارجية. (عن/ إلدم)



مخطط رقم 1: منزل بدون صفاة. (عن/ إلدم)



مخطط رقم 3: منزل ذو صفاة خارجية. (عن/ إلدم)



مخطط رقم 4: منزل ذو صفاة مركزية. (عن/ إلدم)



صورة 2: منزل أقيم بتقنية البناء المفرغ. (عن/ الأنترنت)



صورة 1: تقنية البناء المفرغ. (عن/ الأنترنت)



صورة 4: منزل ذو صفة خارجية تشرف على حديقة. (عن/إلدم)



صورة 3: نموذج للكوناك. (عن/ الأنترنت)

